PSYCHOLOGY AND EDUCATION (2024) 61(12): 630-648
ISSN: 1553-6939

Hammamt in the middle Maghreb: civilizational roles and social functions

Dr. Fares Bekkis[1], Dr. Youcef Mekarma[2]

[1]Research Laboratory for Islamic Sciences in Algeria, University of Batna 1 (Algeria).

[2]University of Batna 1 (Algeria).

Correspondent E-mail: fares.bekkis@univ-batna.dz

Received: 12/2024, Published: 12/2024

Abstract:

Hammamt in Middle Maghreb are a manifestation of civilization, Despite being an extension of its Roman and Byzantine counterpart, it witnessed a series of engineering and architectural modifications, consistent with its religious function and its cultural and urban role in the Islamic city.

This study therefore attempts to highlight functions and roles played by Islamic Bathhouses highlighting their religious and health roles social and Entertainment, as well as its Civilized and urban role , with a highlight to actions taken by the mohtasib on the baths to organize and manage them, and the study does not miss mentioning a number of abuses. Social and legitimate prohibitions, witnessed by Islamic baths.

Keywords: Hammamt (Bathrooms) - Roles - Jobs - Society – middle Maghreb.

الحمامات بالمغرب الأوسط: الأدوار الحضارية والوظائف الاجتماعية

د. فارس بكيس[1]، د. يوسف مقارمة[2]

[1]مخبر بحث العلوم الإسلامية في الجزائر، جامعة باتنة 1 (الجزائر).

[2]جامعة باتنة 1 (الجزائر).

المؤلف المرسل: fares.bekkis@univ-batna.dz

الملخص:

تعد الحمامات في المغرب الأوسط من مظاهر التمدن الحضاري، بالرغم من كونها امتداد لنظيرتها الرومانية والبيزنطية، غير أنها شهدت جملة من التعديلات الهندسية والمعمارية، بما يتوافق مع وظيفتها الدينية والاجتماعية، ودورها الحضاري والعمراني في المدينة الإسلامية.

وعليه تحاول هذه الدراسة تسليط الضوء على الوظائف والأدوار التي لعبتها الحمامات الإسلامية مبرزة في ذلك أدوارها الدينية والصحية والاجتماعية والترفيهية، وكذا دورها الحضاري والعمراني، مع إبراز جملة الإجراءات التي اتخذها المحتسبين على الحمامات بغرض تنظيمها وتسيرها، كما لا يفوت الدراسة الإشارة إلى جملة من التجاوزات الاجتماعية والمحظورات الشرعية، التي شهدتها الحمامات الإسلامية.

الكلمات المفتاحية: الحمّامات– الأدوار– الوظائف– المجتمع– المغرب الأوسط.

مقدمة

تعد الحمّامات من مميزات وخصائص الحضارات القديمة، وهي على مر الزمان من أهم ما ابتكره الإنسان لحاجته لها، ولم تلبث أن أصبحت مقياس لمدى تحضر المدن والدول وذلك عائد بالأساس لارتباطها بجوانب عدة، كالنظافة والتجمل، وكذا تحقيقها للغاية العامة من جلب المنافع للأبدان ودفع المضار عنه.

وبالرغم من كون الحمّامات في الحضارة الإسلامية امتداد لنظيرتها الرومانية، إلا أنها أصبحت من مميزات الحضارة الإسلامية[1] إلى حد مقارنتها بالمساجد كثرة وعددا، وهذا ما جعلها خاصية تتسم بها مدنها وتميزها عن غيرها من المدن الأوروبية في عصرها الوسيط.

لقد كان للحمّامات أهمية كبيرة في المدينة الإسلامية[2] نظراً للوظائف والأدوار التي لعبتها في المجتمع الإسلامي، إذ لم تقتصر هذه الوظيفة على الدور الآني والظرفي لها كالترفيه والترويح عن النفس والتزين، بل تخطى ذلك إلى أدوار حضارية تشغل حيزاً مهماً في البناء الثقافي للأمة الإسلامية ومقوماته، كالدّور الديني كالتطهر، وغسل الأموات..، والصحي كطلب الاستشفاء..، والدور العمراني الحضاري.

وما يمكن ملاحظته على حمّامات المغرب الأوسط هو جمعها بين مختلف هذه الأدوار والوظائف، ولهذا فإننا نهدف من هذه الدراسة إلى تتبع الحمّامات بالمغرب الأوسط تتبعا تاريخيا، وبيان مدى تطورها من خلال الإجابة عن هذه التساؤلات:

هل للحمّامات الإسلامية بالمغرب الأوسط خصوصية تميزها عن غيرها؟ وهل كان للإسلام دورا في كثرتها وانتشارها؟ وما هي أنواعها؟ وما مقاييس تفاضلها؟ وكيف يتم تنظيمها وتسييرها؟ وما دورها ووظيفتها في المجتمع الإسلامي؟

ومن خلال الإجابة عن هذه الأسئلة سوف نحاول بذلك الإحاطة بأدوارها الحضارية ووظائفها الاجتماعية داخل المجتمع الإسلامي بالمغرب الأوسط.

المحور الأول: الحمامات في المغرب الأوسط... لمحة تاريخية

تعد الحمامات ظاهرة اجتماعية قديمة في المغرب الأوسط، إذ يعود تاريخ ظهورها إلى الوجود الروماني بالمنطقة، هذا إن لم يكن أسبق من ذلك، إذ أن المعطيات الأثرية الموجودة في الجزائر وشمال إفريقيا عموما تشير إلى وجود الكثير من

[1] _ يذكر "توماس باور" أن من بين الاختلافات الجذرية التي ميزت الحضارة الإسلامية عن أوروبا في عصرها الوسيط، وجود الحمامات وانتشارها في كل المدن الإسلامية، بينما لا توجد الحمامات في المدن الأوروبية. يراجع: توماس باور، لماذا لم توجد عصور وسطى إسلامية؟ الشرق وتراث العصور العتيقة، ترجمة عبد السلام حيدر، منشورات الجمل، بيروت، لبنان، ط1، 2020، ص46-49.

[2] _ وقد استندنا في بحثنا هذا إلى مجموعة من الدراسات المهمة التي توضح دور وأهمية الحمامات في الحضارة الإسلامية. يراجع: إدريس بن مصطفى، تاريخ الحمامات الشعبية في البلاد العربية، مجلة نزوى، سلطنة عُمان، عدد55، يوليو2008. خليل خلف الجبوري، معالم الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس الحمامات أنموذجاً، دورية كان التاريخية، عدد32، يونيو2016. عامر حجاج حميد ومحمد عبيس حميد الطائي، الحمامات الإسلامية العامة بين الفقه والتاريخ، دورية كان التاريخية، عدد48، يونيو2020.

الحمامات[1] بالمناطق التي عرفت الوجود الروماني، وعلى وجه الخصوص جميلة، تيمقاد، شرشال...[2]، ويعود سبب اهتمام الإدارة الرومانية بالحمامات، إلى حاجة جنودها لوسائل الراحة والتسلية، جراء الحروب التي كانت تخوضها في تلك الفترة.

وتشير المعلومات التاريخية والأثرية كذلك أن عدد الحمامات في المغرب الأوسط يختلف من مدينة إلى أخرى حسب أهميتها الاقتصادية والسياسية فنجد مثلا في مدينة تيمقاد اثنان وعشرون حماما من بينها سبعة حمامات عمومية كبرى، وتسعة حمامات عمومية أخرى صغرى، وستة حمامات خاصة زودت بها القصور، أما مدينة جميلة فكان بها أحد عشر حماما، في حين كان هناك ثلاثة حمامات بمدينة شرشال، وأربعة أخرى بمدينة تيبازة[3].

وإن هذا دّل على شيء فإنه يدل على أن الحمامات كانت تعتبر من بين الفضاءات الاجتماعية الهامة بالمدينة الرومانية، الأمر الذي جعلها تختص بالكثير من المزايا، التي "تهدف إلى بناء الإنسان جسديا لتجسيد قوة الإمبراطورية الرومانية"[4]، وعليه فقد تميزت الحمامات الرومانية، بمباني ضخمة، ومسابح واسعة، وحوانيت للحلاقة والتزين، ومكتبات وقاعات للراحة والاجتماعات[5]، وهذا ما جعلها تتسم بتصميم هندسي له طابعه الخاص الذي يميزه عن غيره من الحمامات البيزنطية والإسلامية.

وتجدر الإشارة أن الرومان قد اعتنوا كثيرا بالجانب الجمالي للحمامات، ولذلك فقد استعملت الكثير من المواد في هذا الجانب، فإلى جانب الرخام استعمل الرومان لتزيين حماماتهمالحجر والآجر حتى يكون البناء صلبا وحافظا للحرارة، كما كانت تتزين الجدران بالعديد من الزخارف ورسوم الحيوانات والنباتات، وحتى الرسومات اللاهوتية والزخارف الإنسانية، كيف لا وهم ملوك النحت على الصخور، إذ تشير المعطيات الحضارية، أن معظم الحمامات قد حوت على تماثيل ورسومات للآلهة الرومانية، خاصة الإلهة فينيس آلهة الجمال عند الرومان، كما حوت أيضا على فسيفساء وزخارف تخلد فترة الحكام الأقوياء والفرسان الشجعان، كما هو الحال مع صورة يوبا الأول، وإلى جانب التماثيل نجد تلك الزخرفات النباتية والزخارف المعمارية والتي أضفت على الحمامات الرومانية مزيدا من الجمال والفخامة[6].

تشير الدراسات التاريخية، إلى استمرار وجود الحمامات مع وصول المسلمين إلى شمال إفريقيا[7]، وهذا ما تدعمه كتب الرحلة والبلدان من أن المغرب الأوسط كان يحوز العديد من الحمامات، منها ما كان امتداد لسالفتها الرومانية ومنها ما استحدث نتيجة تطور المدنية الإسلامية بالمغرب.

---

[1]_ رولى رفعت أبو خاطر، الحمّامات التقليدية ضمن النسيج العمراني للمدينة الإسلامية.. دراسة مقارنة في عدة مدن متوسطية، مجلة إنسانيات، عدد 63-64، سنة2014، ص67.

[2]- سليمة موساوي عربية، الحمامات الجزائرية من العصر الإسلامي إلى العهد العثماني –دراسة أثرية معمارية-، رسالة ماجيستير، معهد الآثار، جامعة الجزائر، 1991/1990، ص1.

[3]- نفس المرجع، ص 22-25.

[4]_ رولى رفعت، الحمّامات التقليدية، ص67.

[5]- سليمة موساوي عربية، الحمامات الجزائرية، ص17.

[6]- نفس المرجع، ص 70-84.

[7]_ رولى رفعت، الحمّامات التقليدية، ص67.

من جانب آخر تجدر الإشارة أن الحمامات والأبنية الإسلامية عموما قد اختلفت عن نظيرتها الرومانية تماشيا مع التاريخ الحضاري للمجتمعات[1]، إضافة إلى الاختلافات الدينية والعقدية.

ومن بين هذه الاختلافات التي تميزت بها الحمامات الإسلامية، إلغاء أحواض السباحة[2]، وهذا راجع بالأساس إلى الغرض من الحمامات في الحضارة الإسلامية، التي وضعت من أجل الطهارة، وقد شدد الفقهاء على عدم مخالطة القذارة للماء من أجل بقائه على طهارته وهذا من شروط الطهارة في الدين الإسلامي[3].

أما من الجانب الهندسي فقد حاول المسلمون إضفاء الطابع الإسلامي من خلال ابتكار نظام القباب[4]، بدل السقف الخشبي الذي ميز الحمامات الرومانية، إضافة إلى خلو الحمامات الإسلامية من النوافذ[5]، والغرض من ذلك الاحتفاظ بالحرارة والبخار.

إضافة إلى كون هذه الحمامات مغطاة بالطوب والحجر والفخار والكلس والرخام، وتميزت أيضا بأنها ذات أعمدة قصيرة، وأقواس منحرفة، وتيجان، تبرز بوضوح معالم الفن المعماري الإسلامي[6]، على خلاف الأبنية الرومانية ذات الجدران الغليظة والعالية، والمساحات الواسعة.

وعلى العموم فقد كانت الحمامات في المغرب الأوسط تحتوي على ست قاعات باستثناء روان المدخل، وقاعة خلع الملابس، القاعة الباردة، القاعة الدافئة، القاعة الحارة، بيت العرائس، والفرناق[7].

ومن الجدير الإشارة أنّ الحمامات بالمغرب الأوسط تشبه كثيرا نظيرتها الموجودة بالأندلس والمغرب الأدنى، حيث كان الحمام مزوداً بأنابيب تعمل على نقل الحرارة والبخار إلى قاعات الاستحمام، كما يحتوي على مقاعد للانتظار واستقبال الزبائن، وقاعة لخلع الملابس هذا وتحتوي قاعته الرئيسة على أفرشة ممدودة للراحة بعد الاستحمام، كما يحتوي على أروقة تمكن صاحبها من الولوج إلى مختلف القاعات الأخرى كالقاعة الحارة وقاعة التدليك[8].

هذا وتحيلنا المصادر التاريخية المختلفة؛ خاصة تلك المتعلقة بكتب الرحلة والبلدان، أن الحمامات كانت منتشرة بكثرة في المغرب الأوسط، خاصة في الحواضر الكبرى، وطرق القوافل والتجارة، وهو ما أهلّها لتكون إحدى خصائص مدن بلاد المغارب بشكل عام، والمغرب الأوسط بشكل خاص، إذ يذكر البكري (ت487هـ) وابن حوقل(376هـ) وغيرهما أن

---

[1]_ توريس ليوبولدو بلباس، الأبنية الإسبانية الإسلامية، ترجمة: علية إبراهيم العناني، مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية، مدريد، عدد1، السنة 1372هـ/1953م، ص97.

[2]_ سليمة موساوي عربية، الحمامات الجزائرية، ص79.

[3]_ محمد أبو عبد الله بن احمد بن قاسم بن سعيد العقباني التلمساني، كتاب تحفة النّاظر وغنية الذاكر في حفظ الشعائر وتغيير المناكر، تحقيق: علي الشنّوفي، نشرت الدراسات الشرقية، المعهد الفرنسي، دمشق، 1967، ص75.

[4]_ خليل خلف الجبوري، معالم الحضارة العربية، ص163.

[5]– سليمة موساوي عربية، الحمامات الجزائرية، ص79.

[6]– نفس المرجع، ص90-105.

[7]– الفرناق: يتكون من قاعتين إحداهما لحفظ الحطب، والأخرى للفرن لتسخين الماء.

[8]_ سليمة موساوي عربية ، الحمامات الجزائرية، ص85.

مدن المغرب الأوسط العامرة كانت لا تخلو من الحمامات، بل أن منها ما يحتوي على أكثر من حمام أو حمامين، فالبكري مثلا نجده يستعرض ما جادت به مدن المغرب الأوسط من حمامات من بونة حتى تلمسان عاصمة الزيانيين، كالآتي:

-"ومدينة بونة مدينة أولية... لها مساجد وأسواق وحمام"[1].

-كما تحدث عن مدينة المسيلة وقال أنّ "للمدينة أسواق وحمامات"[2].

-"ومدينة تنس بينها وبين البحر ميلان... وبها مسجد جامع وأسواق كثيرة... وبها حمامات"[3].

-مدينة ميلة "وعليها سور صخر اليوم، وبها جامع وأسواق وحمامات... ولها حمامان في ربضها"[4].

-"وكان بتيهرت أسواق عامرة، وحمامات كثيرة، ويسمى منها اثني عشر حماما"[5].

-مدينة نفطة [المدينة قريبة من تهوذا، وهي في الطريق إلى تونس] "مدينة مبنية بالصخر، عامرة آهلة، بها جامع ومساجد وحمامات كثيرة، وهي كثيرة المياه السائحة"[6].

-"وبمدينة أرشقول [بالقرب من تلمسان] مسجد جامع حسن فيه سبعة بلاطات... وفيها حمامان أحدهما قديم"[7].

-مدينة فكّان (أسسها يعلى بن محمد اليفرني وارتحل إليها أهل معسكر) "وبها جامع وحمام وخنادق"[8].

-مدينة مليلة "وفيها مسجد جامع وحمام وأسواق"[9].

ومن جهة أخرى تحدث ابن حوقل عن وجود العديد من الحمامات بالمغرب الأوسط إذ يذكر أن مدنا مثل تيهرت، والشلف، ووادي الصفاصف كانت تحتوي على العديد من الأنهار والأرحية والحمامات، "وتاهرت مدينتان كبيرتان إحداهما قديمة أزلية والأخرى محدثة، والقديمة ذات سور وهي على جبل ليس بالعالي وبها كثير من الناس، وفيها جامع وفي المحدثة أيضا جامع ولكل إمام وخطيب، والتجار والتجارة بالمحدثة أكثر، ولهم مياه كثيرة تدخل على أكثر دورهم وأشجار وبساتين وحمامات وخانات"[10]، ومن هذا فإن الحمامات قد ارتبط وجودها بنشأة المدينة الحديثة المغاربية، كما أنها كانت لصيقة بالمساجد والأسواق بحكم أنها الأماكن الأكثر استقطابا للأشخاص والوفود، وأن أكثرها كان بالمدن الوفيرة المياه والأنهار، ولذا فقد حظيت المدن الحديثة بأكبر نسبة لوجودها.

---

[1]- أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمد البكري، المسالك والممالك، تحقيق: جمال طلبة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2003، ج2، ص233.

[2]- نفس المرجع، ج2، ص239.

[3]- نفس المرجع، ج2، ص242.

[4]- نفس المرجع، ج2، ص245.

[5]- نفس المرجع، ج2، ص250.

[6]- نفس المرجع، ج2، ص257.

[7]- نفس المرجع، ج2، ص260.

[8]- نفس المرجع، ج2، ص263.

[9]_ نفس المرجع، ج2، ص266.

[10]- أبو القاسم بن حوقل النصيبي، صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، دط، 1992، ص 86.

ونجد من الرحالة كذلك الحسن الوزان(ت بعد 957هـ)الذي أتى على ذكر بعض الحمامات بالمغرب الأوسط، وكان كثيرا ما يعقد مقارنات بينها وبين نظيرتها في الحواضر المغربية، فيشير إلى أن حمامات المغرب الأوسط خاصة تلك المتواجد بتلمسان كانت أقل جودة وأقل ماءً من حمامات فاس[1]، كما أشار أيضا أن مدن قسنطينة وبجاية كانت تحوي العديد من الحمامات منها الطبيعي كما هو الحال بالأولى، أو ما بناه الناس كما هو الحال في الثانية.

أما إذا أتينا إلى ذكر أسماء الحمامات[2] وأماكن تواجدها بتلمسان مثلا؛ نجد أن أشهر الحمامات بها كانت بالمدن، حيثكانت تشهد استقطاب الكثير من الناس، ولعل أشهرها:

1/ حمام العالية: يقع بالقرب من باب الجديد، ويصفه العبدري بقوله: وبه حمامات نظيفة ومن أحسنها وأنظفها حمام العالية، وهو مشهور وقلّأن يرى له نظيرا.

2/ حمام الصباغين: يتميز هذا الحمام بشكله المميز ذو القبة المحددة التي تعلو فناءه، وتعتمد على إثني عشر عمودا مكونة من أربع مجموعات من ثلاثة أعمدة موضوعة في زوايا الفناء[3]، أما عن موقع الحمام داخل المدينة فإنه يقع في الحي الشمالي الشرقي من المدينة، ينفتح بابه على نهج صغير، ويربط نهج خلدون بنهج معسكر، وقد كان هذا الحمام الملاذ المفضل لسيدي أحمد بن الحسن الغماري، حيث كان كثير التردد على هذا الحمام، ويفضله على غيره، حتى أهل تلمسان القدامى يفضلون تسمية هذا الحمام باسمه[4].

3/ حمام الطبول: ذكر هذا الحمام في وثيقة الأوقات التي أصدرها أبو حمو موسى الثاني، والخاصة بالمدرسة اليعقوبية التي أنشأها سنة (765هـ/1465م)، والوثيقة تنص على أن السلطان قد حبس الزاوية المقمة على ضريح والده أبي يعقوب.

المحور الثاني: تنظيم الحمامات

لم تكن الحمّامات في الحضارة الإسلامية على وجه واحد من الدقة وطرق التنظيم والتسيير بل تنوعت وتعددت أشكالها وأنواعها من الوجهة الهندسية،وخضعت كغيرها من المرافق في المدينة الإسلامية إلى ضوابط وشروط يحدده المحتسب، وعلى هذا سوف نحاول استعراض أفضل هذه الحمامات وطرق تنظمها وتسييرها، بالإضافة الإجراءات المتبعة في السهر عليها.

أولا: أفضل الحمّامات

[1]– الحسن بن محمد الوزان الفاسي، وصف أفريقا، ترجمة: محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 1983، ج2، ص20.

[2]– عبد العزيز فيلالي، تلمسان في العهد الزياني–دراسة سياسية، عمرانية، اجتماعية، ثقافية–، موفم للنشر، الجزائر، دط، 2007، ج1، ص140.

[3]– رشيد بورويبة، الحياة الفنية في عهد المرابطين والموحدين، ضمن كتاب الجزائر في التاريخ–العهد الإسلامي من الفتح إلى بداية العهد العثماني–، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، دط، دت،ص351.

[4]– عطاء الله دهينة، الدولة الزيانية في عهد يغمراسن، ضمن كتاب الجزائر، ص364.

تواترت الأخبار على أنّ أفضل الحمّامات "ما كان كثير الضِّياء، قديم البناء، مرتفع السقوف، واسع البيوت، عذب الماء، وكانت حرارته بقدر مزاج داخله"[1]، ويضيف الدمشقي، أنّ أفضلها"ما توسط العمارة، وكانت مصارف الماء واسعة مستقلة، ليؤمن عليها من الاختناق، وكانت بيوتها متوسطة مكتنزة، ليعمل فيها الوقود وكان مخلعها وقمينها واسعين، ليمكن ادخار الكثير من الوقود لها، وإن كان ماؤها بدولاب فما قل عمق بئرها فهي أفضلها، وإن كان ماؤها جاريا فما قرب من جهة الماء ومعظمه"[2].

وقال أحد الشعراء أنه يجب أن تتوفر ثمانية خصائص في الحمام حتى يكتمل نعيمة وفائدته[3].

وللحمام حاءات ثمان إذا كملت فقد كمل النعيم

فحمام وحناء وحوض وحكاك له حجر يعوم

وحجام يزين ثم يعطي حديدته وأنت به عليم

وجاء حديث من تصغى إليه رخيم الدل منظره وسيم

وحاء ثامن وهو المؤدى إليه وذلك الحاء العظيم

والجدير بالذكر أنّ الحمامات لم تكن كلها متقنة الصنع والهيئة، فبعضها مما لا يرجى منه فائدة طبية ولا ترفيهية، وهذا ما يوضحه قول الشاعر في ذمِ حمامٍ[4]:

إن حمامنا الذي نحن فيه هو في حاجة إلى الحمام

فدخلنا ونحن أبناء سام وخرجنا ونحن أبناء حام

ثانيا: تنظيم الحمامات

إلى جانب هذه الخصائص التي تتوفر في هذه الحمّامات،فقد كانت تخضع إلى تنظيم محكم يشرف عليه "المحتسب الذي كان يتفقد الحمامات مراراً في اليوم، ويأمر أصحابها بإصلاح الحمامات ونضح مائها، وبغسل الحمام وكنسه وتنظيفه بالماء الطاهر، وأن يفعلوا ذلك مراراً في اليوم"[5]، بالإضافة إلى دوره في الحفاظ على خصوصية المجتمع الإسلامي من خلال مراقبة وتفقد "أبواب حمامات النساء"[6].

---

[1]_ شهاب الدين أحمد بن عماد الأقفهسي الشافعي، القول التمام في آداب دخول الحمام –أحكام دور الاستحمام في الفقه الإسلامي–، تحقيق: محمد خير رمضان يوسف، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ط1، 1461هـ/ 2000م، ص23.

[2]_ جعفر بن علي أبو الفضل الدمشقي، الإشارة إلى محاسن التجارة، تحقيق: البشرى الشوربجي، منشورات مكتبة الكليات الأزهرية، مطبعة الغد، الإسكندرية، مصر، ط1، 1397هـ/ 1977م، ص55.

[3]_ أحمد ابن القاضي المكناسي، جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1973، ص188.

[4]_ نفس المرجع، ص189.

[5]_ عزب خالد محمد مصطفى، تخطيط وعمارة المدن الإسلامية، كتاب الأمة، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الدوحة، قطر، عدد58، ط1، 1997، ص110.

[6]_ نفس المرجع، ص110.

إضافة إلى أنّ على الحمّام مجموعة من العمال[1]، يسهرون على راحة الناس وخدمتهم، كل بمهمته وكل باسمه،وتختلف أعدادهم بحسب سعة الحمام وخدماته.

1- القيِّم أو الحمَّامي[2]، وينبغي عليه أن يوفر للناس "ميازر يؤجرها للناس، أو يعيرها لهم، فإنَّ الغرباء والضّعفاء قد يحتاجون إلى ذلك"[3].

2- والحكّاك (الدلاك):ويشترط المحتسبين على في المدلك "أن يدلك يده بقشور الرمان، لتصير خشنة فيخرج الوسخ، ويستلذ بها الإنسان"[4]، وقد كان غالب من يتمهن هذه الصنعة من الرقيق[5] والغلمان[6].

وقد أشترط عليهم المحتسبين كذلك أن "يبيّتون محاكّهم التي يحكّون بها أرجل الناس في الملح والماء كلّ ليلة لئلّا تكتسب الروائح، ويغسلون ميازرهم كلّ عشيّة بالصابون"[7]،كما يجب عليهم حك الحمام جيد حتى لا تلتصق به الزيوت والأوساخ.

3- المزين أو البلاّن، ويطلق عليها أيضا الحجّام، وهو الذي يقوم على إصلاح لحية الناس وشعورهم، وقد وضع المحتسبين شروطا له منها أن يكون"خفيفا رشيقا بصيرا بالحلاقة"[8]، وهو ملزم بأن لا يحلق دقن مخنث ولا يزين له صدغاً ولا لغيره من المردان والأحداث[9]، ولا يحلق للصبي إلا بإذن وليه[10]، ولم يقتصر دوره على التزيين فقط، بل من مهامه أيضا، إزالة الأسنان المريضة، والفصد والحجامة[11].

4- الوقادون ويشترط فيهم المحتسب "أن لا يوقدوا بسماد، ولا بطعام، وأن يتفقدوا مجاريها، ويحسنوا تدبيرها، ولا يقطعوا ماء الطهور عنها"[12]، ومن مهامهم أيضا أنهم يجوبون أرجاء المدينة لشراء الزبل من الاصطبلات وينقلونه

---

[1]_ يذكر ابن الجوزي أن الحمام في المشرق يقوم على، "خمسة نفرٍ: حمامي، وقيّم، وزبّال، ووقّاد، وسقّاء"، وتختلف أسمائهم بين المشرق والمغرب. يراجع: عبد الرحمن أبو الفرج بن علي بن محمد ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تحقيق: محمد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1412هـ/ 1992م، ج5، ص82.

[2]_ عبد الرحمن بن عبد الله بن نصر الشّيزري، نهاية الرّتبة في طلب الحسبة، تحقيق: محمد حسن إسماعيل وأحمد فريد المزيري، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1424هـ/ 2003، ص257.

[3]_ نفس المرجع، ص257.

[4]_ محمد بن أحمد بن بسام المحتسب، نهاية الرّتبة في طلب الحسبة، تحقيق: محمد حسن إسماعيل وأحمد فريد المزيري، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1424هـ/ 2003، ص322.

[5]_ عبد الإله بنمليح، الرق في بلاد المغرب والأندلس، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، لبنان، ط1، 2004، ص383.

[6]_ الوزان، وصف إفريقيا، ج1، ص229.

[7]_ أبي عبد الله محمد بن أبي محمد السَّقطي المالَقيّ الأندلسي، في آداب الحسبة، د. م. ن، ص67.

[8]_ الشيزري، نهاية الرتبة، ص258.

[9]_ ابن بسام، نهاية الرتبة، ص322.

[10]_ الشيزري، نهاية الرتبة، ص258.

[11]_ أحمد بلحاج آية ورهام، ديوان الحمّامات، مركز الكتاب الأكاديمي،الأردن، ط1، 2019، ص28.

[12]_ ابن بسام، نهاية الرتبة، ص323.

خارج المدينة، ثم يجعلونه أكداسا ويتركوه ليجف شهرين أو ثلاثة، وبعد ذلك يستعمل كالحطب في تسخين القاعات وماء الحمامات[1].

5- الناظور، ومهمته حفظ ثياب الناس من الضياع، فإن ضاع منه شيء لزمه ضمانه[2].

إلى جانب العمال القائمين على الحمام وخدمة الناس، هناك وسائل تستعمل للتنظيف والتزيين، ومنها: النُّورة[3]، والغاسول، والصابون، والزيوت، والسِدرُ، وأنواع كثيرة من العقاقير[4]، بغرض الاعتناء بالجسم والبدن،وكذلك استعمل أدوات كثيرة في الحمام كاللّيف، وحجر الحكِّ، وكلها استعملت في الحمامات، وبعضها يستعملها الحكّاك في مهمته، حتى أن الشاعر ناصر الدين الحمّامي (ت712هـ/ 1312م)، وصف حجر الحكِّ[5]، الذي يستعمله الحكاك قائلا:

لحجر الحمَّام عندي يَدُ ومِنَّةٌ لستُ أُؤدِّيهَا

فهو لرجلي صقيلٌ لم يَخُزْ عن طبعٍ في الرِّجلِ يُؤْذِيهاَ

إلى جانب حجر الحكِّ يوجد اللّيف أيضا، وهو مما يستعمل في الحمام لتنظيف الجسد وصقله، وفيه يقول نفس الشاعر[6].

لِلّيف في تنظيف جسم المستحمّ تختَزَهْ

فلا يغُورُ دَرَنٌ في الجسم إلاّ أبْرَزَهْ

كأنّها ذوائبٌ قد شُمِّطتْ محزَّزَهْ

وينقسم الحمام في المغرب الأوسط إلى حمامات خاصة وأخرى عامة، والملاحظ أنّ المصادر لا تسعفنا بمعلومات دقيقة عن الحمامات الخاصة.وعلى ما يبدو فأن الحمامات الخاصة اتخذت بسبب ما كان يحدث في الحمامات العامة من كشف للعورات وعدن الاستتار، بالإضافة إلى الاختلاط بعامة الناس، حيث كان يقصدها كل شرائح المجتمع، وهذا ما يوضحه القلقشندي من أن رؤساء وكبراء مدينة فاس كانوا يتخذون الحمّامات في بيوتهم، "فرارا من مخالطة العامة في الحمَّام"[7]. والسبب ناتج عن تصميم الحمام "بصحن واحد لا خلاوى فيه"[8].

---

[1] _ الوزان، وصف إفريقيا، ج1، ص229-230.

[2] _الشيزري، نهاية الرتبة، ص257.

[3] _ النُّورة هي: حجر الكلس، وتضاف إليها أخلاط أخرى، وتستعمل لإزالة الشعر للرجال والنساء، ولها استعمالات كثيرة بحسب الحاجة إليها.يراجع: السَّقطيّ، في آداب الحسبة، ص51. عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي، كتاب الآداب والأحكام المتعلقة بدخول الحمام، تحقيق: أبي سليمان سامي بن محمد بن جاد الله، دار الوطن للنشر، الرياض، ط1، 1418هـ/ 1997م، ص72.

[4] _ السقطي، في آداب الحسبة، ص51-52.

[5] _ وهو الشاعر نصير بن أحمد بن علي المناوي الحمَّامي كان أديباً يحترف اكتراء الحمامات (ت712هـ/ 1312م). يراجع: صلاح الدين خليل ابن أيبك الصَّفدي، الكشف والتنبيه على الوصف والتشبيه، تحقيق: هلال ناجي ووليد بن أحمد الحسين، سلسلة إصدارات الحكمة، بريطانيا، ط1، 1420هـ/ 1999م، ص406-407.

[6] _ نفس المرجع، ص407.

[7] _ أحمد أبو العباس القلقشندي، صبح الأعشى، دار الكتب الخديوية، القاهرة، مصر، 1333هـ/ 1915م، ج5، ص156.

[8] _ نفس المرجع، ج5، ص156.

والأمر نفسه يؤكده **"توريس بلباس"** عن حمامات الأندلس من أنّ "المنازل المهمة والقصور، كانت لها حمامات خاصة على طراز الحمامات العامة ولو أنها أصغر منها بوجه عام"[1]، ولا نستبعد أن يكون مثل ذلك في مدن المغرب الأوسط، غير أنّ هناك معطيات عن الحمامات العامة، نستطيع من خلالها التعرف عليها وعلى الخدمات التي تقدمها.

ومن الأمور التّي يوفرها القيّم على الحمامات العامة "ميازر يؤجّرها للناس أو يعيرها لهم، فإن الغرباء أو الضعفاء قد يحتاجون ذلك"[2]، إلى جانب ما تم ذكره سابقا من أدوات التنظيف والتزيين، مثل النُّورة، والغاسول، والصابون، والسدر، والخطميّ، والزيوت، واللّيف، وحجر الحكِّ، فإنها كلها كانت متوفرة في الحمامات العامة.

وقد أجاز الفقهاء للمستحم الاستعانة بمدلك، من أجل تنظيف جسده "إلا ما بين السُّرّة والرُّكبة، فإنه يحرم كشفه ومسه. ولو كان في الحمام بلاّن أمرد حرم تمكينه من ذلك في العور وغيرها"[3]، وكان بعضهم يحضر خادمه لتدليكه وتنظيف جسده[4].

وأمّا عن أوقات فتحها صباحاً، فإن أصحاب الحمّامات مطالبين، "بفتح الحمام في السحر، لحاجة الناس إليها للتطّهر فيها قبل وقت الصلاة"[5]، وممّا يذكره الحسن الوزان أن النساء كن يذهبن إلى الحمام، في سائر الأيام، على أنّه كان لهن وقت مخصص، وفي بعض الأحيان خصصت لهم حمامات خاصة[6]، بالإضافة أن النساء كن يقصدن الحمامات في الأعراس وتجهيز العروس.

ومما يشير إليه الوزان(ت بعد 957هـ)، أن في أوقات النساء يوضع حبل على باب الحمام، للإشعار حتى لا يدخله رجل، أما إذا أراد طلب زوجته، فعليه أن ينادي إحدى مستخدمات الحمام، وهن زنجيات لتقوم بمهمة التبليغ[7].

غير أن خروج النساء إلى الحمام لم يكن مستساغاً من طرف الفقهاء، فقد جرت الأحكام عند الفقهاء أنّ دخول الحمام مما أختلف فيه، فمنهم من قال بالكراهة، ومنهم من قال بالإباحة[8]، ومرد ذلك؛ لاختلاف الأخبار وتعارض الآثار الواردة عن النبي صلى الله عليه وسلم وصحبه[9].

وقد نقل عن الفقيه ابن الحاج العبدري الفاسي (ت737هـ)، أنه قضى بخروج النساء إلى الحمام "إلا من سقمٍ أو نفاسٍ"[10]، وحكم في موضع آخر أنها "لا تدخله إلا من علّة"[11]، وقد حذر الرجل أنه لا "ينبغي له أن يأذن لزوجته في

---

[1] _ توريس ليوبولدو بلباس، الأبنية الإسبانية الإسلامية، ص109.

[2] _ الشيزري، نهاية الرتبة، ص257.

[3] _ شهاب الدين أحمد بن عماد الأقفهسي الشافعي، القول التمام في آداب دخول الحمام –أحكام دور الاستحمام في الفقه الإسلامي–، تحقيق: محمد خير رمضان يوسف، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ط1، 1461هـ/ 2000م، ص97.

[4] _ الوزان، وصف إفريقيا، ج1، ص229. عبد الإله بن مليح، الرق في بلاد المغرب، ص383.

[5] _ الشيزري، نهاية الرتبة، ص257.

[6] _ الوزان، وصف إفريقيا، ج1، ص230.

[7] _ الوزان، وصف إفريقيا، ج1، 230.

[8] _ ابن كثير، كتاب الآداب والأحكام، ص26-34.

[9] _ عبد الملك بن حبيب، كتاب أدب النساء –الموسوم بكتاب الغاية والنهاية–، تحقيق: عبد المجيد تركي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1412هـ/ 1992م، ص232-236.

دخول الحمام لما اشتمل عليه في هذا الزمان من المفاسد الدينية والعوائد الرديئة"[1]، بل لقد "خرقن إجماع الأمة بدخولهم الحمامات باديات العورات"[2]، في حين نجد أن الفقيه العقباني التلمساني (871هـ) يرى أن دخول المرأة الحمام "أصله الإباحة"[3]، وعلَّل ذلك بأنه من الزيادة في النظافة والتزين،غير أنه أفتى في بعض الأوقات بحرمته، لما شاع من عدم استتار النساء في ذلك الزمان، بينما أجازه لمن يخلو لها الحمام أو تكون مع من يجوز له الاطلاع عليها[4].

وقد شدد الفقهاء في خروج المرأة إلى الحمام وجعلوا لذلك شروطا، ومن ذلك أن لا تخرج متزينة ومتعطرة وأن تستر عورتها عند دخول الحمام ولا تدخل الحمام مع الكتابيات وأهل الذمة[5].

ويضاف إلى ذلك السبب؛ ما يحدث في الحمامات من كشف للعورات، و"إطلاع بعض الفاسقات على محاسن الأخرى من تحرُّك شهوةِ التَّفاعل الذي يختار بعضهنَّ لذّته عن مباضعة الرَّجل"[6]، وهذا ما حمل الفقهاء على "منعهنَّ فيما بينهنَّ من المآتم والحمَّامات ونحوها من الاسترسال في إظهار ما يخفى من محاسنهن...، فإن المرأة أكثر محاسنها وخفايا جسمها يُحْكم لها بحكم العورة، فيجب ستره عن النّساء كما يجب ستره عن الرجال"[7]، وهذا ما حمل المحتسبين في الغالب على تفقد "أبواب حمّامات النساء"[8]، درءاً للمفاسد والاختلاط والخلوة بهن من طرف الرجال، وهذا ما تثبته بعض الوقائع من حدوث بعض المحظورات على أبواب حمامات الناس.

بينما تشدد الفقهاء في إجازة الدخول إلى الحمام حتى على الرجال وجعلوا لذلك شروطا عديدة[9]، وسبب ذلك؛ الخوف من أن يطلع بعضهم على عورات بعض بغير ظن، أمّا دخوله غير مستتر أو مع من لا يستتر فلا يحل ذلك[10].

---

[10]_ العقباني، تحفة النّاظر، ص73.

[11]_ نفس المرجع، ص73.

[1]_ محمد أبو عبد الله بن محمد بن محمد العبدري المالكي الفاسي، المدخل لابن الحاج، مكتبة دار التراث، القاهرة، مصر، ج2، ص172.

[2]_ نفس المرجع، ج2، ص172.

[3]_ العقباني، تحفة الناظر، ص73.

[4]_ نفس المرجع، ص73

[5]_ يراجع: عامر حجاج ومحمد عبيس، الحمامات الإسلامية العامة، ص51-52.

[6]_ العقباني، تحفة النّاظر، ص72.

[7]_ نفس المرجع، ص72.

[8]_ الشيزري، نهاية الرتبة، ص270.

[9]_ يذكر الفقيه ابن الحاج (ت737هـ)، عشرة شروط لجواز دخول الحمام، وهي: أولا-أن لا يدخلها أحد من الرجال أو النساء إلا للتداوي. ثانيا -أن يتعمد أوقات الخلوة وقلة الناس. ثالثا -أن يستر عورته بازار صفيق. رابعا-أن يطرح بصره إلى الأرض أو يستقبل الحائط لئلا يقع بصره على محظور. خامسا -أن يغير ما رأى من منكر برفق بأن يقول استر ستر الله. سادسا-إن دلّكه أحد لا يمكنه من عورته من سرته إلى ركبته إلا امرأته أو جاريته. سابعا -أن يدخله بأجرة معلومة. ثامنا-أن يصبّ الماء على قد الحاجة. تاسعا-إن لم يقدر على دخوله وحده اتفق مع قوم يحفظون دينهم على كراهة في ذلك لما يخشى. عاشرا -أن يتذكر به عذاب جهنم. يراجع: ابن الحاج، المدخل لابن الحاج، ج2، ص179.

[10]_ أبو الوليد ابن رشد القرطبي، البيان والتحصيل والشرح والتوجيه والتعليل في مسائل المستخرجة، تحقيق: محمد حجّي، دار الغرب الإسلامي، ط2، 1408هـ/ 1988م، ج1، ص117.

إلى جانب هذه الإجراءات التنظيمية التي يفرضها المحتسب على الحمامات، فإنه وضع للداخلين إلى الحمام شروطا، حيث يمنع منعا من الدخول، كل من فيه عاهات ظاهرة كالأجذم والأبرص، ومن كانت مهنته تؤذي الناس برائحتها، كالسماكين والدباغين والأساكفة[1]، كما منع الباعة من أيضا "من غسل الأجبان في مطاهر الحمامات"[2]، وقد اتخذت هذه الإجراءات من لدن المحتسب بغرض الحفاظ على طهارة المكان وصلاحيته للقيام بأدواره الصحية والدينية ووظائفه الاجتماعية والترفيهية.

المحور الثالث: الأدوار والوظائف

لقد كان للحمامات أهمية كبيرة في المدينة الإسلامية[3]، نظراً للوظائف والأدوار التي يلعبها في المجتمع الإسلامي، فطبعا لم تقتصر وظيفة الحمام على الوظائف الآنية والظرفية فقط؛ كالترفيه والترويح عن النفس والتزين، بل تخطى ذلك إلى أدوار حضارية تشغل حيز مهم في البناء الثقافي للأمة الإسلامية ومقوماته، كالدور الديني التطهر والاغتسال للصلاة، وغسل الميت، والأدوار الصحية كالاستشفاء، والتجميلي والترفيهي والمعماري الحضاري.

أولا: الدور الطبي والديني

من منافع الحمام الطبية "أنه يجلب النوم، ويذهب الإعياء والتعب، ويذهب الحكة والجرب وينضجُ الزكام والنّزلة، ويسهّل عسر البول"[4]، ولقد لخّص القنوجي غاية الحمام بالنسبة للإنسان في "جلب المنافع للبدن ودفع المضار عنه"[5].

ومن الوقائع التاريخية بالمغرب الأوسط التي تبرز دور حماماته ومنافعها الطبية في شفاء الأمراض، ما يذكره الداعي إدريس (ت872هـ)، أن أبا عبد الله الشيعي (ت322هـ)، "عرضت له علّة حصاة كانت تعتريه فسار معه رجل من سكتان إلى ميلة يريد بها الحمّام"، وهذا ما تؤكده المصادر أن "بها عينا تعرف بعين الحُمَّى يرش منها على المحموم فيبرأ لبركتها وشدّة برْدها"[6]، ويبدو أن ماءها كان يستعمل في الحمامات ليتداوى به الناس.

---

[1] _ ابن بسام، نهاية الرتبة، ص322.

[2] _ المرجع نفسه، ص322

[3] _ تأتي أهمية الحمام في المدينة الإسلامية مباشرة بعد أهمية المسجد، وهذا مما نؤكده من خلال تتبعنا للمصادر البلدانية التي ورد ذكرها في المحور الأول من الدراسة.

[4] _ الأقفهسي، القول التمام، ص26.

[5] _ إدريس بن مصطفى، تاريخ الحمامات الشعبية في البلاد العربية، ص82.

[6] _ البكري، المسالك والممالك، ج2، ص245. محمد بن عبد المنعم الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، منشورات مكتبة لبنان، بيروت، ص569.

وأما فيما يخص الدور الديني للحمامات في الثقافة الإسلامية، فلا يخفى على باحث، ومما يبرز ذلك أنها كانت مقرونة بالمساجد ودور العبادة، إذ لعبت دورا مهما في جانب العبادات كالوضوء للصلاة[1]، والغسل من الجنابة[2]، والحيض والنفاس، والغسل للعيدين،[3] والجمعة وسائر الصلوات[4].

ومن أدواره الدينية في الطهارة، ما ذكره الشاعر الشهاب بن الفضل[5]:

وحمامكم كعبة للوفود ونحج إليه حفاة وعراة

يكرر صوت أنابيبه كتاب الطهارة... باب المياه

كما استعملت لتغسيل الميّت من المسلمين[6]، والغسل من الحجامة، وقد أمر بعضهم أن على من يغسل الموتى أن يغتسل أيضا، في حين شدد بعض الفقهاء على ضرورة إعداد موضع للغسل في البيت، حتى يعين الرجل زوجته على الصلاة والتطهر لها من الجنابة، وذكر أن الغالب عليهم في زمن ابن الحاج "أن الرجل يراعي حق نفسه إذا كانت له عناية بدينه فيطأ ويخرج إلى الحمام ويترك أهله وهن جنب وليس عندهن موضع للغسل ولا آلة تعين عليه وقد يستحي بعضهن وهو الغالب أن يخرجن إلى الحمام في كل أوان فكان ذلك سببا لترك الصلاة"[7].

ومن العادات المنتشرة أيضا التي يذكرها محمد ابن الحاج من أن الرجل إذا أراد الزواج لم يعدَّ مكانا للغسل ولا حماما للطهارة، وهذا الغالب عليهم، وذلك في قوله: "وكذلك تجد بعضهم يعطي في صداق المرأة المئين أو الآلاف ولا يعد موضعا للغسل بشيء يسير من ذلك"[8]، وهذا يحيلنا على وظيفة الحمّام الاجتماعية ودوره الحضاري والعمراني في المدينة الإسلامية.

ثانيا: الوظيفة الاجتماعية والترفيهية

إلى جانب مهامه الصحية والطبية فإنّ للحمام مهام ترفيهية، إذ "يعتبر مركزاً لعقد المجتمعات المرحة كما هو الحال في حمامات قادس في القرن السادس عشر الميلادي على حسب رواية ليون الإفريقي فقد كان الرجال والنساء يجتمعون للأكل

[1] _ غير أن بعض الفقهاء لم يجز الوضوء فيه لأمران؛ أحدهما تسخينه بالأقذار والنَّجاسات، والثاني: "لأن ماء الحمام غير مصان عن الأيدي والغالب أن يدخل يده فيه من لا يتحفظ من النجاسات مثل الصبي الصغير والكبير الذي لا يعرف ما يلزمه من الأحكام فيصير الماء مضافا فتسلبه الطهورية". يراجع: ابن الحاج، المدخل لابن الحاج، ج2، ص178. العقباني، تحفة الناظر، ص75.

[2] _ ابن رشد، البيان والتحصيل، ج1، ص141. ابن الحاج، المدخل لابن الحاج، ج2، ص169-170.

[3] _ ابن رشد، البيان والتحصيل، ج1، ص406.

[4] _ العقباني، تحفة النّاظر، ص73.

[5] _ عبد العزيز سالم، في تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، مصر، 1985، ص209.

[6] _ ابن الحاج، المدخل لابن الحاج، ج3، ص238

[7] _ نفس المرجع، ج2، ص169-170.

[8] _ ابن الحاج، المدخل لابن الحاج، نفس المرجع، ج2، ص170.

والغناء واللعب. وكان ذلك فرصة من الفرص القليلة التي تسنح للنساء المحتجبات في منازلهم"[1]،للترويح عن أنفسهن بمختلف أنواع التسلية

ومن أوجه الترفيه التي كانت في حمامات النساء، ما يذكره الفقيه ابن الحاج، أنه وُضِعَ لهن ميازر للتستر بهن، فصارت النساء تتضارب بالأزر على وجه اللعب، وعلى هذا صارت المصلحة زيادة في المفسدة[2]، على حد قول الفقهاء.

ويبدو أنّ الحمّام كان مرتعاً لكافة الناس،ومجلس أنس ولهو وغناء، وهذا ما يدل عليه قول الشاعر ابنُ مُغَلِّس البَلَنْسيُّ (ت429هـ)[3]، وهو يصف أحد الحَمّامات[4]:

ومنزِلِ أقوامٍ إذا ما اغتدوا به تَشابَهَ فيه وَغْدُه ورئيسُهُ.

يُخالطُ فيه المرءُ غيرَ خليطِهِ ويُضْحي عَدُوُّ المرءِ وهو جَليسهُ.

يفرّج كربي إن تزايد كربه ويؤنس كربي أن يعدّ أنيسهُ.

إذا ما أعَرْتُ الماءَ حوضًا تكاثرتْ على مائِه أقمارُه وشموسه.

ومن وظائفه المهمة التنظُّف والتزين[5]، بحلق شعر الرأس وإزالة الدّرن عن الجسم[6]، ولم يختص بجنس معين بل شمل الرجال والنساء، وقد جرت العادة عند بعضهم إلى حلق شعر الإبط داخل الحمام[7]،كما كان أيضا موضعا للبحث عن المرأة المناسبة للزواج[8].

---

[1] _ توريس ليوبولدو بلباس، الأبنية الإسبانية الإسلامية، ص108.

[2] _ عامر حجاج حميد ومحمد عبيس حميد الطائي، الحمامات الإسلامية العامة، ص51.

[3] _ هو الشاعر أبو محمد عبد العزيز بن أحمد بن السِّيد بن مُغَلَّس القيسي الأندلسيّ البلنسيّ؛ كان من أهل العلم باللغة والعربية مشاراً إليه فيهما، قرأ الأدب على أبي العلاء صاعد بن الحسن الربعي صاحب كتاب الفصوص. يراجع: شمس الدين أحمد أبو العباس بن محمد بن أبي بكر بن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، دت، ج3، ص193-194. أحمد بن محمد المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرّطيب، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1408هـ/ 1988م، ج2، ص132-133

[4] _ المقري، نفح الطيب، ج2، ص133.

[5] _ جاء في كتاب "أدب النساء"، أنّ امرأة أتت عمر بن الخطاب بزوج لها أشعث أغبر أصفر فقالت له: يا أمير المؤمنين لا أنا ولا هذا خلصني منه، فنظر عمر إليه فعرف ما كرهت منه فأشار إلى رجل وقال: اذهب به إلى الحمام فجممه وخذ من شعره وقلم أظفاره وألبسه حلة معافريّة ثم ائتني به". والرواية دليل على أهمية التزين للزوجة والتطهر لها بالذهاب إلى الحمام.يراجع: عبد الملك بن حبيب، كتاب أدب النساء، ص167.

[6] _ الأقفهسي، القول التمام، ص97-98.

[7] _ نفس المرجع، ص117-118.

[8] _ وهذا ما يحكى عن الخليفة المهدي (ت169هـ)، ثالث الخلفاء العباسيين، انه كان صاحب "تغزل وحب في النساء، فبلغه عن عونة بنت أبي عون جمال وهيبة، فقال لجاريتها الخيزران، استزيريها. فاستزارتها. فلما صارت عندها. قالت لها: هل لكِ في الحمام؟ قالت: إن شئت. فدخلت الحمام معها. فلم يشعرن إلا والمهدي قائم على رأسها وهي عريانة. فتوارت من خلف خيزران، فجذبها، فأخذت ركسا وقالت. والله لئن دونت مني لأضربن به وجهك. فقال لها: إنما أردت أن أنظر إليك لأتزوجك. قالت: لا سبيل إلى ذلك. فتركها وانصرف. وبلغه عن بنت الوزير ابن أبي عبيد الله مثل ذلك، ففعلت الخيزران كالأول. ودخل المهدي عليها وهي عريانة، فجذبها، فقالت له: أنا جاريتك فافعل بي ما شئت. فصرف الخيزران وواقعها. فلما انصرفت أخبرت أخاها عبيد الله بذلك. فكلفها باستزارة الخيزران ودخولها الحمام معها. ففعلت، فلم تشعر الخيزران إلا وعبيد الله هجم عليها وهي عريانة. فاستترت منه فقال: أما إنا لو أردنا أن نفعل ما فعلتم لفعلنا، ولكن لا نستحل ذلك. فانصرفت خيزران وأخبرت المهدي بذلك، فتجنى عليه بعد ذلك حتى قتله" يراجع: عبد الرؤوف المناوي، كتاب النزهة الزهية، ص102-103.

ثالثا: الدور الحضاري والعمراني

إن ما يمكن التأكيد عليه أن الحمامات أصبحت من متطلبات الحياة اليومية لسكان المدينة الإسلامية بالغرب الإسلامي،حتى أنه غدت في بعض الأحيان مكان لقول الشعر وتطارحه، وخير مثال على ذلك؛ ما حدث في إحدى حمامات الأندلس، بين الشاعرين أبو بكر بن بقى وأبو جعفر بن هريرة التطيلي المعروف بالأعمى[1]، ولا نستبعد أن تكون مثل هذه القصص في المغرب الأوسط غير أنها لم تنقل إلينا.

ومما يزيد من دوره الحضاري ملازمته للفنادق، وهذا مما يوضح جانبه الاقتصادي المتعلق بالتجار والغرباء، فمن المعلوم أن التجار بحاجة إلى الراحة والاسترخاء وتخفيف آلام السفر، ولا يوفر هذه الأشياء سوى الحمامات والفنادق.

وإلى جانب ما سبق؛ كان للحمام وظائف أخرى،حيث استعمل في تزيين الجواري وتحسينهن بغرض بيعهن[2]، وفيه أيضا تتم الاتصالات بين مختلف الطوائف الاجتماعية، ويتفق على الزواج أو بداية مبادرته الأولى، وفيه يتحدثون عن مراسم الدفن والحديث عن أمور التجارة والصفقات، وصولا إلى مرحلة الاتفاق، وفيه تحكى الحوادث العائلية بين الأصدقاء[3].

المحور الرابع: التجاوزات والمحظورات التي تقع في الحمامات

بالرغم من الإسهامات الجليلة والأدوار العديدة التي قامت بها الحمامات، غير أنها شهدت مجموعة من التجاوزات والمحظورات، توزعت بين التجاوزات العرفية والمحظورات الشرعية، ومن ذلك ما ذكره الفقيه ابن الحاج الفاسي (ت737هـ)، أن البلوى قد عمت في زمانه بسبب المنكرات والمحظورات التي تقع في الحمامات، "فتجد بعض الناس يدخلون إلى الحمام فيأمرون البلان أن يحلق لهم عانتهم فيكشف عليه من لا يجوز له الاطلاع على ذلك وليته لو كان وحده وإن كان محرما لكن يطلع على ذلك جماعة من الحمام"[4]،ولم يقتصر هذا الفعل على الأحياء فقط، بل تعدى ذلك إلى الموتى فذكر أن الميت إذ غسل حلقت عانته، وهذا مما لا يجوز شرعا[5].

هذه التجاوزات التي تحدث في الحمامات حملت بعض الفقهاء على القول بأن الذهاب إلى الحمام مما يهتك الأستار ويذهب الوقار[6]، كما أن من التجاوزات التي تقع على أبواب الحمامات المعاكسات والخلوة بالنساء، وهذا ما حمل

---

[1] _ أحمد بلحاج، ديوان الحمَّامات، ص33-36.

[2] _ يراجع: السَّقطيّ، في آداب الحسبة، ص51.

[3] – موساوي عربية، الحمامات الجزائرية من العصر الإسلامي إلى العهد العثماني، ص11.

[4] _ ابن الحاج، المدخل لابن الحاج، ج3، ص238.

[5] _ نفس المرجع، ج3، ص238.

[6] _ عبد الرؤوف المناوي، كتاب النزهة الزهية في أحكام الحمام الشرعية والطبية، تحقيق: عبد الحميد صالح حمدان، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط1، 1408هـ/ 1987م، ص93.

المحتسبين على تفقد "أبواب حمّامات النساء"[1]، ومن ذلك ما جاء في جذوة الاقتباس أن الشاعر صالح بن شريف، كان على باب حمام فخرجت امرأة فقال فيها[2]:

برزت من الحمام تمسح وجهها عن مثل ماء الورد بالعنّاب

والماء يقطر من ذوائب شعرها كالطل يسقط من جناح غراب

فكأنما الشمس المنيرة في الضحى طلعت علينا من خلال سحاب

وفي بعض الأحيان يصبح الحمام مكانا للسرقات، وهذا ما حدث لمحمد ابن عبد الله بن سُكَّرَةَ (ت375هـ)، حين دخوله الحمام فلما استحم وخرج وجد نعله قد سُرِق، فعاد إلى داره حافيا، فأنشد بذلك أبياتا[3]:

إليك أذمُّ حمّامَ ابْنِ مُوسى وإن فاق المنَى طيباً وحرًّا

تكاثرت اللُّصوص عليه حتَّى ليحفى من يطوف به ويعرى

فلم أفقد به ثوبا، ولكن دخَلْتُ محمداً وخرجتُ بِشْرَا

ولم تقتصر التجاوزات على هذه الأمور فحسب، بل إنها تجاوزت ذلك حتى أصبح الحمام مكاناً للجرائم والاغتيالات وتصفية الحسابات السياسية[4].

ويمكننا القول أن التجاوزات في الحمامات في الفترة الإسلامية، قد تنوعت بين التجاوزات الاجتماعية والشرعية، التي تتعارض مع العرف الاجتماعي والأحكام الشريعة الإسلامية.

خاتمة

من حصيلة ما قدمناه من مادة علمية حول الحمامات ووظائفها الدينية والاجتماعية فقد خلصنا ختاما إلى أن:

الحمامات ظاهرة اجتماعية قديمة في المغرب الأوسط، بدأت مع الوجود الروماني والبيزنطي في المنطقة، ثم ما لبثت أن أصبحت من خصائص المغرب الأوسط لما تميز به من الخصائص الجغرافية وتوفر عنصر الماء الضروري في قيام الحمامات.

إضافة إلى كون الحمامات الإسلامية بالمغرب الأوسط، تميزت بالتعدد والتنوع وهذا ما يمكن ملاحظته من خلال الاطلاع على ما دونته كتب الرحلة والبلدان، بالإضافة إلى كون هذه الحمامات نسخة معدلة من الحمامات الرومانية، خضعت في بناءها وهندستها للظروف الاجتماعية والتاريخية، التي فرضها الدين الإسلامي في المنطقة.

---

[1] _ الشيزري، نهاية الرتبة، ص270.

[2] _ ابن القاضي المكناسي، جذوة الاقتباس، ص190.

[3] _ ويقصد بشرا الحافي الصوفي(ت257هـ)، وكان من كبار الزهاد لزم المشي حافيا فلُقب به. يراجع: عبد الرؤوف المناوي، كتاب النزهة الزهية في أحكام الحمام الشرعية والطبية، تحقيق: عبد الحميد صالح حمدان، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، مصر، ط1، 1408هـ/ 1987م، ص101-102. أحمد بلحاج، ديوان الحمَّامات، ص46-47.

[4] _ يُذكر أن المعتضد بالله بن عباد، احتال على طائفة من رؤساء البربر حتى زاروه بإشبيلية، فأدخلهم الحمام مبالغة منه في الحفاوة بهم، ثم سد عليهم الباب فماتوا جميعا. يراجع: عبد العزيز سالم، في تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس، ص211.

وهـذا مـا تجسـد في الأدوار الـتي قـام بهـا المحتسـب علـى الحمامـات، وفـق مقتضـيات الشـرع الإسـلامي وتعاليمـه، وعلـى هـذا فـإن الحمامـات بالمغـرب الأوسـط قامـت بأدوار ووظـائف حضـارية عديـدة، تعـددت بـين الأدوار الصـحية والدينيـة وبـين الوظائف الاجتماعية والترفيهية.

وبالـرغم مـن هـذه الإسـهامات الجليلـة والأدوار العديـدة الـتي تـوفرت عليهـا الحمامـات، إلا أنهـا شـهدت جملـة مـن التجاوزات والمحظورات التي تتعارض مع القيم المجتمعية والشرعية للمجتمعات الإسلامية بالمغرب الأوسط.

المصادر والمراجع

1- باور توماس، لماذا لم توجد عصور وسطى إسلامية؟ الشرق وتراث العصور العتيقة، ترجمة عبد السلام حيدر، منشورات الجمل، بيروت، لبنان، ط1، 2020.

2- أبو خاطر رولى رفعت، الحمّامات التقليدية ضمن النسيج العمراني للمدينة الإسلامية.. دراسة مقارنة في عدة مدن متوسطية، مجلة إنسانيات، عدد 63-64، سنة2014.

3- موساوي عربية سليمة، الحمامات الجزائرية من العصر الإسلامي إلى العهد العثماني —دراسة أثرية معمارية-، رسالة ماجيستير، معهد الآثار، جامعة الجزائر، 1991/1990.

4- ليوبولدو توريس بلباس، الأبنية الإسبانية الإسلامية، ترجمة: علية إبراهيم العناني، مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية، مدريد، عدد1، السنة 1372هـ/1953م.

5- العقباني التلمساني محمد أبو عبد الله بن احمد بن قاسم بن سعيد، كتاب تحفة النّاظر وغنية الذاكر في حفظ الشعائر وتغيير المناكر، تحقيق: علي الشنّوفي، نشرت الدراسات الشرقية، المعهد الفرنسي، دمشق، 1967.

6- الجبوري خليل خلف، معالم الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس الحمامات أنموذجاً، دورية كان التاريخية، عدد32، يونيو2016.

7- البكري أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمد، المسالك والممالك، تحقيق: جمال طلبة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2003، ج2.

8- بن حوقل النصيبي أبو القاسم، صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، دط، 1992.

9- الوزان الفاسي الحسن بن محمد، وصف أفريقيا، ترجمة: محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 1983، ج2.

10- فيلالي عبد العزيز، تلمسان في العهد الزياني-دراسة سياسية، عمرانية، اجتماعية، ثقافية-، موفم للنشر، الجزائر، دط، 2007، ج1.

11- بورويبة رشيد، الحياة الفنية في عهد المرابطين والموحدين، ضمن كتاب الجزائر في التاريخ-العهد الإسلامي من الفتح إلى بداية العهد العثماني-، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، دط، دت.

12- الدمشقي جعفر بن علي أبو الفضل، الإشارة إلى محاسن التجارة، تحقيق: البشرى الشوربجي، منشورات مكتبة الكليات الأزهرية، مطبعة الغد، الإسكندرية، مصر، ط1، 1397هـ/ 1977م.

13- ابن القاضي أحمد المكناسي، جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1973.

14- محمد مصطفى عزب خالد، تخطيط وعمارة المدن الإسلامية، كتاب الأمة، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الدوحة، قطر، عدد58، ط1، 1997.

15- ابن الجوزي عبد الرحمن أبو الفرج بن علي بن محمد، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تحقيق: محمد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1412هـ/ 1992م، ج5.

16- الشّيزري عبد الرحمن بن عبد الله بن نصر، نهاية الرّتبة في طلب الحسبة، تحقيق: محمد حسن إسماعيل وأحمد فريد المزيري، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1424هـ/ 2003.

17- بن بسام محمد بن أحمد، نهاية الرّتبة في طلب الحسبة، تحقيق: محمد حسن إسماعيل وأحمد فريد المزيري، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1424هـ/ 2003.

18- بنمليح عبد الإله، الرق في بلاد المغرب والأندلس، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، لبنان، ط1، 2004.

19- السَّقطي أبي عبد الله محمد بن أبي محمد المالقيّ الأندلسي، في آداب الحسبة، د. م. ن.

20- ورهام آية أحمد بلحاج، ديوان الحمّامات، مركز الكتاب الأكاديمي،الأردن، ط1، 2019.

21- بن كثير عماد الدين أبي الفداء إسماعيل الدمشقي، كتاب الآداب والأحكام المتعلقة بدخول الحمام، تحقيق: أبي سليمان سامي بن محمد بن جاد الله، دار الوطن للنشر، الرياض، ط1، 1418هـ/ 1997م.

22- الصَّفدي ابن أيبك صلاح الدين خليل، الكشف والتنبيه على الوصف والتشبيه، تحقيق: هلال ناجي ووليد بن أحمد الحسين، سلسلة إصدارات الحكمة، بريطانيا، ط1، 1420هـ/ 1999م.

23- القلقشندي أحمد أبو العباس، صبح الأعشى، دار الكتب الخديوية، القاهرة، مصر، 1333هـ/ 1915م، ج5.

24- الأقفهسي شهاب الدين أحمد بن عماد الشافعي، القول التمام في آداب دخول الحمام –أحكام دور الاستحمام في الفقه الإسلامي–، تحقيق: محمد خير رمضان يوسف، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ط1، 1461هـ/ 2000م.

25- بن حبيب عبد الملك، كتاب أدب النساء –الموسوم بكتاب الغاية والنهاية–، تحقيق: عبد المجيد تركي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1412هـ/ 1992م.

26- ابن الحاج محمد أبو عبد الله بن محمد بن محمد العبدري المالكي الفاسي، المدخل لابن الحاج، مكتبة دار التراث، القاهرة، مصر، ج2.

27- ابن رشد أبي الوليد القرطبي، البيان والتحصيل والشرح والتوجيه والتعليل في مسائل المستخرجة، تحقيق: محمد حجّي، دار الغرب الإسلامي، ط2، 1408هـ/ 1988م، ج1.

28- بن مصطفى إدريس، تاريخ الحمامات الشعبية في البلاد العربية، مجلة نزوى، سلطنة عُمان، عدد55، يوليو2008.

29- الحميري محمد بن عبد المنعم، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، منشورات مكتبة لبنان، بيروت.

30- سالم عبد العزيز، في تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، مصر، 1985.

31- حجاج حميد عامر ومحمد عبيس حميد الطائي، الحمامات الإسلامية العامة بين الفقه والتاريخ، دورية كان التاريخية، عدد48، يونيو2020.

32- بن خلكان شمس الدين أحمد أبو العباس بن محمد بن أبي بكر، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، دت، ج3.

33- المقري أحمد بن محمد التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرّطيب، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1408هـ/ 1988م، ج2.

34- المناوي عبد الرؤوف، كتاب النزهة الزهية في أحكام الحمام الشرعية والطبية، تحقيق: عبد الحميد صالح حمدان، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط1، 1408هـ/ 1987م.